Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

تجليات البعد التداولي في البلاغة العربية (علم البيان نموذجا)

Manifestations of the deliberative dimension in Arabic rhetoric (rhetoric as a model)

1. جنيدي الطيب –Djenidi Tayeb– . 2. أ.د. عابد بوهادي - Abed Bouhadi -

1 جامعة ابن خلدون تيارت . كلية الآداب واللغات . قسم اللغة العربية والأدب العربي، مخبر الحجاج

1 doctorant 4eme , univ Ibn Khaldoun – Tiaret – , faculty literature and languages, Department of Arabic language and Arabic literature ,laboratory
tayebdjenidi927@gmail.com

2 جامعة ابن خلدون ـ تيارت ـ . كلية الآداب و اللغات . قسم اللغة العربية والأدب العربي، مخبر الحجاج

2 professor , univ Ibn Khaldoun – Tiaret – , faculty literature and languages, Department of Arabic language and Arabic literature ,laboratory
elhadj_abed@hotmail.fr

المؤلف المرسل : جنيدي الطيب –Djenidi Tayeb– . tayebdjenidi927@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021-03-11 تاريخ القبول : 2021-06-30

الملخص:

نظرا لكون العرب أمة أمية فقد اعتمدوا في نقل تراثهم ـ من شعر ونثر ومآثر ـ على المشافهة والسماع ورغم شيوع الكتابة والتدوين ـ بعد مجيء الإسلام ـ إلا أن أصول تلك المدونات كانت تؤخذ سماعا من أفواه الحفاظ والشيوخ ،صونا لها من اللحن والتصحيف ،وهذا ما يدل على أن علومها من نحو وبلاغة وتفسير وأصول فقه وغيرها علوم سماعية وظيفية تراعي مقاصد المتكلمين ، و أحوال المخاطبين و مقامات الخطاب ،فهي مظنة وجود المفاهيم التداولية التي تشارك تلك العلوم نفس هذا الاهتمام ،لذلك كان هدف هذا المقال حول الأبعاد التداولية في أحد أهم العلوم التراثية وهو علم البلاغة ، مع التركيز على تجليات تلك الأبعاد في علم البيان خاصة .

الكلمات المفتاحية : الأبعاد التداولية ، البلاغة العربية ، السماع والاستعمال , علم البيان

Abstract:

Given the fact that the Arabs are an illiterate nation, they relied on transmitting their heritage - from poetry, prose and exploits - on verbal communication and hearing, and despite the prevalence of writing and recording - after the advent of Islam - however, the origins of these blogs were taken from the mouths of the preservers and the sheikhs, to protect them from melody and recitation, and this indicates However, its sciences of grammar, rhetoric, interpretation, principles of jurisprudence and other functional audiological sciences that take into account the aims of the speakers, the conditions of the speakers and the positions of the discourse, it implies the existence of deliberative concepts that share these sciences with this same interest, so the goal of this article was about deliberative dimensions in one of the most important heritage sciences It is the science of rhetoric, with emphasis on the manifestations of those dimensions in the science of rhetoric in particular.

Keywords: international dimensions, Arabic rhetoric, hearing and usage, rhetoric

مقدمة:

مضمون هذا المقال يأتي ليتوسط اتجاهين مختلفين في الدراسات اللغوية العربية الحديثة في نظرتهما إلى التراث، حيث ينظر إليه الأول بعين القداسة والإجلال ولا يسمح لنفسه ولا لغيره بإدخال أي تطوير عليه أو تعديل أو تبديل، وذلك لارتباطه برموز و شخصيات دينية وعلمية لها مكانتها في نفوس أبناء المجتمع العربي والإسلامي ، وينظر إليه الاتجاه الثاني بعين الازدراء والتنكر،منبهرا في الوقت نفسه بكل وافد غربي من مناهج ونظريات حديثة ومعاصرة ،محاولا بكل الطرق محاكمة كل ما جادت به قرائح القدماء إلى هذا الوافد الجديد غير آبه بالخصوصيات الثقافية والاجتماعية لكل منهما . أما الرأي الجدير بالاعتبار في نظرنا فهو الذي يكون وسطا بين الاتجاهين السابقين حيث يتبنى فكرة إمكانية استثمار لسانيات التراث وما يوجد فيها من أفكار مبثوثة بين ثنايا كتب النحو والعروض والبلاغة وغيرها ، وهي أفكار وتحقيقات لا تقل أهميتها العلمية عما يطرحه الدرس اللساني الحديث ،مع الانفتاح على مستجدات هذا الأخير،لأن العلاقة بين اللسانيات العربية القديمة واللسانيات الحديثة علاقة امتداد وتطوير في ضوء إدراك لخصوصيات كل منهما .

المحور الأول: التداولية : النشأة والمفاهيم

تشير الدراسات الغربية إلى أن أول من استعمل مصطلح التداولية هو الفيلسوف الأمريكي تشارل موريس Charles Morris سنة 1938 قاصدا به أحد فروع "علم العلامات" وهو الفرع الذي يهتم بدراسة << علاقة العلامات بمستعمليها>> [1]

،إلا أن تداولية (موريس) اقتصرت على دراسة ضمائر التكلم والخطاب وظرفي الزمان والمكان، و التعابير التي تستند في دلالتها على المقام الذي يجري فيه التواصل ولم تصبح التداولية حقلا يعتد به في الدرس اللغوي إلا في العقد السابع من القرن العشرين، بعد أن قام على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي لـ(جامعة أكسفورد) ،وهم جون أوستينGon Austin وجون سيرل Gon Searle وبول جرايسGoulgirce وكانوا جميعا من راود (مدرسة اللغة الطبيعية) Natural أو العادية ordinory وكل منهم قد اهتم << بطريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ مرسل رسالة إلى مستقبل يفسرها، وكان هذا من صميم عملهم، وهو من التداولية أيضا، ومن الغريب أن أحدا منهم لم يستعمل مصطلح التداولية فيما كتب من أبحاثه >> [2]

ويعتبر أوستين Austin المؤسس الأول لنظرية الأفعال الكلامية، وذلك سنة 1955 عندما ألقى محاضرات ويليام جايمس wiliamjames lectures و قام من خلال ذلك بتأسيس اختصاص جديد هو << فلسفة اللغة>> والرد على <<فلاسفة اللغة الوضعية>> الذين كانوا يرون في اللغة وسيلة لوصف الواقع بعبارات إخبارية يتم الحكم عليها بالصدق أو الكذب : بالصدق إن طابقت الواقع وبالكذب إن لم تطابقه، وهذه الأخيرة، لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، وبالتالي فالعبارة لا معنى لها،وهذا ما يطلق عليه" أوستين " المغالطة الوضعية " deschiptivefallaay " ،وقد توصل أوستين في آخر مرحلة من مراحل بحثه إلى تقسيم الفعل الكلامي الكامل إلى ثلاثة أقسام :[3]

01- فعل القول (أو الفعل اللغوي) actedelocutiore :

وهو اطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم وذات دلالة.

02- الفعل المتضمن في القول (الفعل الانجازي) acteillocutoire :

وهو الفعل الانجازي الحقيقي فهو " عمل ينجز بقول ما " وهو المقصود من النظرية برمتها، مثل: السؤال، الوعد والوعيد، والأمر.....إلخ.

03- الفعل الناتج عن القول (الفعل التأثيري) acteper locutoire :

حيث يرى أوستين أنه مع القيام بفعل القول، وما يصحبه من فعل متضمن في القول (القوة)، فقد يكون الفاعل(المتكلم) قائما بفعل ثالث هو التسبب في نشوء آثار في

المشـــاعر والفكـــر ،وأمثلـــة تلـــك الآثـــار :الإقنـــاع التضليل،الإرشاد،التضبيط،التخويف...ويســـــــــــــميه "أوستين"الفعل الناتج عن القول ،ويسميه بعضهم الفعل التأثيري.[4]

وقد تأثر أولائك الفلاسفة بأحد أقطاب الفلسفة التحليلية وهو لودفيج فيتجنشتاينl.vittgestin الذي دعا الى ضرورة الاهتمام باللغة العادية وهي اللغة التي يتكلمها رجل الشارع في حياته اليومية ،حيث كان يرى أن اللغة لعبة وقانونها الاستعمال، لأن معاني الكلمات تدرك من خلال استعمالاتها المتعددة في الحياة اليومية العادية .[5]

فكان للفلسفة التحليلية أثر بارز في ظهور التداولية ، التي اهتمت بدراسة قواعد استعمال اللغة في سياقات مختلفة، وكذا مقاصد المتكلمين وأغراضهم وأحوال المخاطبين ، متجاوزة بذلك الصورنة البنوية والمثالية التوليدية ، محاولة الإجابة عن أسئلة كثيرة من قبيل : ماذا نصنع حين نتكلم ؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم ؟ من يتكلم إذن ؟ وإلى من يتكلم؟ من يتكلم ولأجل من ؟ ... كيف يمكننا قول شيء ونريد غيره ؟ هل يمكن أن نركن إلى المعنى الحرفي لقصدما؟... .[6]

المحور الثاني: تعريف التداولية

تجمع تعريفات التداولية على فكرة الاستعمال فهي ترتبط بها بشكل أو بآخر ،لأنها تدرس اللغة في السياق ،وتوقف جميع مظاهر التأويل اللغوية على السياق ،فالجملة الواحدة يمكن أن تعبر عن معان مختلفة من سياق إلى آخر ،لذالك يعتبر أوجز تعريف للتداولية وأجدره بالقبول << هو دراسة اللغة في الاستعمال أوفي التواصل لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئا متأصلا في الكلمات وحدها ،ولا يرتبط بالمتكلم وحده ،ولا السامع وحده ،فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي واجتماعي ولغوي)وصولا إلى المعنى الكامن في كلام ما >> [7]

المحور الثالث: أهم المفاهيم والأبعاد التداولية :

- الأفعال الكلامية.
- الاستلزام الحواري
- متضمنات القول
- القصدية
- الإشاريات
- نطرية الملاءمة
- الحجاج

المحور الرابع: مفهوم البلاغة العربية:

البلاغة في اللغة تعني الوصول إلى الشي ، يقول أبو هلال العسكري : << البلاغة من قولهم :بلغت الغاية إذا انتهيت إليها ،وبلغتها غيري ،و مبلغ الشيء منتهاه ، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته، فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنتهي بالمعنى إلى قلب السامع فيفهمه >> .[8]

أما في الاصطلاح فيعرفه أبو هلال بأنها : << كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن >>[9]

فهذا التعريف يشير إلى طرفي التواصل وهما : المتكلم والسامع ،إلا أنه يركز على المتكلم الذي ينبغي أن يمتلك القدرة على التأثير على السامع ،التي تتجلى في حسن استخدام الوسائل التعبيرية والبلاغية.

وقد قسم السكاكي البلاغة إلى ثلاثة علوم وهي:

علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع [10]

وهو تقسيم ينم عن إحساسه العلمي بخصوصية هذه المباحث وافتراقها عن بعضها، ولاسيما بما يتصل بالمقامية وسياق الموقف ، فجاء تقسيمه علميا رصينا، وهو وإن لم يشر للأسباب التي دفعته إلى هذا التقسيم، إلا أننا بإمكاننا أن نوضح علة ذلك بأن الخصوصية المقامية للمباحث البلاغة تقتضي تمييزها من بعضها . وهو يقدم من خلال هذا التقسيم نموذجا علميا تداوليا في كشف المعنى البلاغي.

المحور الخامس: علاقة التداولية بالبلاغة:

تعتبر البلاغة أهم العلوم العربية التي تتجلى فيها العلاقات التداولية في اللغة وتتمظهر فيها مفاهيمها ، لأنها تهتم بدراسة

التعبير في مختلف مستوياته :اللفظية والتركيبية والدلالية ،والعلاقات القائمة بينها،فإذا كانت التداولية :دراسة اللغة أثناء الاستعمال فإن البلاغة هي : معرفة اللغة حين الاستعمال ،أو هي "فن القول" بالمعنى الأوسع، حيث أن "الفن " يرتبط بالذوق والاستخدام الشخصي للغة ،وآثار المتكلم على كلامه ،وكيف يمكنه أن يعدل من موقف سامعه و يؤثر فيه،و هو مجال التداولية الذي حدده " بيرس بـ"علاقة العلامات بمستعمليها".

وفي اطلاق " فن القول " على البلاغة إشارة إلى اللغة التي اهتمت بها البلاغة العربية ،و هي اللغة ذات المستوى العالي ،ولذلك ميز البلاغيون بين لغة الخطاب العادي التي سميت بـ" لغة النحو"،أو "المعنى الأصلي" للكلام و بين لغة الشعر والأدب ، وهذه تبدأ حيث تنتهي الأولى ،وهذا ما يبينه أبوهلال العسكري بقوله :<< وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة ، لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة ومعرضه خلقا لم يسم بليغا،وإن كان مفهوم المعنى ،مكشوف المغزى >> [11]

ويضيف موضحا : << ومن قال أن البلاغة هي إفهام المعنى فقط ،فقد جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب ،والإغلاق والإبانة سواء ...فلما رأينا أحدهما مستحسنا، والآخر مستهجنا،علمنا أن الذي يستحسن البليغ ،والذي يستهجن ليس ببليغ >> [12]

إذن هناك تفريق واضح في الدرس البلاغي القديم بين لغتين : اللغة العادية ،واللغة التي اهتمت بها البلاغة وهي لغة الأدب والشعر،وهذه نقطة فارقة بين البلاغة والتداولية ،لأن هذه الأخيرة تهتم باللغتين معا.

و يرى "ليتشLeitch" أن البلاغة تداولية ،لأنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع [13]

وهونفس ما يراه محمد العمري ،حين يقول : << وحديثا يعاد الاعتبار إلى البلاغة العربية في الدراسات السميائية تحت عنوان جديد :التداولية >> [14]

وأما صلاح فضل فيرى أن التداولية تعنى<< بالعلاقة بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلي المرتبط به ،بشكل منظم ، مما يطلق عليه سياق النص، ويأتي مفهوم التداولية هذا ليغطي بطريقة منهجية منظمة ،المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة (مقتضى الحال) وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية (لكل مقام مقال) >> [15]

فكل من البلاغة والتداولية يركز على التشكيل اللغوي الذي يكون في الموقف المعين، وهذا ما يجعلهما << تتفقان في اعتمادهما على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي ،على أساس أن النص اللغوي في جملته إنما هو نص في موقف >>[16]

المحور السادس: تجليات البعد التداولي في البلاغة العربية :

يمكن رصد تجليات البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال ما يلي :

أولا- من خلال الاهتمام بالمتكلم :

وهذا ما يظهر جليا في علم البيان حيث << يقوم أساسا على الاهتمام بالموقف الداخلي المراد،فيجعل من قصد المتكلم مركز اهتمامه ،كونه يؤثر في استعمال اللغة واختيار الإستراتيجية المناسبة للخطاب ...>> [17].

وعلم البيان يتيح للمتكلم أشكالا من تركيب العلامات اللغوية وما تنتجه من صور جديدة تعينه على التعبير عن المعاني الدقيقة والعميقة ،مما لا تستطيع أن تؤديها اللغة العادية ،فالصور البيانية والمجاز يعبران عن موقف متخيل وعوالم خاصة عند المتكلم ،ولكنها بالإمكان أن تخاطب خيال المتلقي من خلال إقامة الموازنة بين العوالم المتشابهة (التشبيه والاستعارة) ،أو المجاورة (المجاز والكناية) ،فالبيان يعطي المعنى في صور حسية قابلة للإدراك والوصول إلى قصد المتكلم والتأثير على المتلقي ،عن طريق المبادئ التداولية التي تجعل المستمع يفهم أكثر مما قيل له ،من خلال فك الشفرات

البيانية ،اعتمادا على القرائن المقالية والحالية التي تميز الحقيقة عن المجاز [18] .

ومن ذلك الاعتناء بالمتكلم وبما يرتبط بنيته وقصده ،والظروف الخارجية للخطاب ،مما تميزت به الدراسات اللسانية اللغوية العربية عموما منذ نشأتها عن الدراسات اللسانية الحديثة التي نِشأت متمركزة على البنية الداخلية للغة ،غير معتدة بالبنية الخارجية بما فيها المتكلم أو منشئ الخطاب ، و لم يهتم بها إلا في المقاربات الأخيرة مثل التداولية ولسانيات النص والخطاب . وفي القصدية يقول ابن فارس << فأما المعنى فهو القصد>> [19] . وعند البلاغيين العرب لايكون المتكلم مكلما مالم يقصد ، يقول القاضي عبد الجبار:<< إن المتكلم لغيره إنما يحصل مكلما له بأن يقصده بالكلام دون غيره، ويكون آمرًا له متى قصده بالكلام وأراد منه المأموربه>> [20]

ويقول ابن خلدون في ذلك << اعلم أن اللغة في المتعارف عليه هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام >> [21]

وهذا مذهب رائد في التفكير البلاغي العربي، لايختلف عن ما عرضه (أو ستين) في بداية تأسيسه لنظرية الأفعال الكلامية.

ثانيا- من خلال الاهتمام بالمتلقي (السامع) :

وهو ما يتجلى من خلال علم المعاني: الذي يتوخى الاعتناء بالمخاطب في المواقف المختلفة، كما يظهر أيضا من خلال بحوث البلاغين حول " المقام " ومقتضى الحال، على اعتبار أن << البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال>> ، والمراد بالحال عندهم هي حال السامع أو المخاطب حيث توظف مباحث التقديم والتأخير، والحذف، والالتفات، والوصل والفصل، والإيجاز والإطناب، والمساواة وغيرها حيث يراعي المتكلم في توظيفها أحوال المخاطبين، يقول الجاحظ : << ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات >> [22]

<< فلا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، لأن ذلك جهل بالمقامات، وما يصلح لكل واحد منهما من الكلام >> [23]

لأن المقصود هو الفهم والإفهام يقول أبو هلال العسكري، << وإذا كان موضوع الكلام على الإفهام، فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه لما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب >> [24]
فاهتمام البلاغة العربية بالمتكلم والمخاطب ومقام الخطاب يجسد فيها أهم الأبعاد التداولية ويجعلها تداولية في الصميم.

ثالثا- من خلال الاهتمام بالخطاب في حد ذاته :

مصطلح الخطاب وتحليله والاعتناء بملابساته يعتبر آخر حلقات التطور في الدراسات اللسانية الحديثة ، المتمثلة في لسانيات الخطاب ولسانيات النص ، التي تجاوزت لسانيات الجملة، واللسانيات البنيوية ويكاد يستقر الأمر على مصطلح الخطاب ،بدلا من النص ، مما يجعله ذا دلالات أوسع من دلالات النص وما فيه من إيحاءات بالاستعمال والتداول.

ومن الشروط البيانية في الخطاب لدى البلاغيين العرب أن لا يخالف قواعد الفصل والوصل والعطف والإضمار، والحذف والتكرار.... إلخ وهي شروط يراعى فيها مقتضى حال المخاطب أوما يعبر عنه البلاغيون بقولهم (لكل مقام مقال) حيث تقوم البلاغة برمتها على هذه الفكرة . و في الإيضاح للقزويني : << وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع خصائصه >>. [25]

ومراعاة مقتضى الحال و الاهتمام به في البلاغة العربية من أهم المفاهيم التي تقوم عليها التداولية ، وفي هذا الصدد

يقول صلاح فضل : << ويأتي مفهوم التداولية ليغطي بطريقة منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة

القديمة بعبارة (مقتضى الحال) وهي التي انتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية (لكل مقام مقال) >> [26]

ففكرة مقتضى الحال تداولية لأنها تقتضي مراعاة الشروط التي تكون فيها الخطاب مطابقا للحال التي يستخدم فيها بين المتكلم والسامع .

ويختلف مقتضى الحال باختلاف مقامات الكلام أو الخطاب، من مقام التنكير إلى مقام التعريف، ومن مقام الإطلاق إلى مقام التقييد ومن مقام التقديم إلى مقام التأخير . ومن أهم مايدل على اعتناء البلاغيين باختلاف مقامات الكلام ما أورده السكاكي ـ وهو لا يختلف كثيرا عما يعرضه الدرس الحديث في نظرته إلى دلالة الخطاب بحيث لا تتحدد إلا في السياق والموقف الاجتماعي، والربط بين الخطاب والمقام حيث يقول: << لا يخفى عليك أن مقامات الكلام مختلفة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، وكذا مقام الكلام الابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر >> [27]

إذن اهتمام البلاغة بمطابقة المقال لمقتضى الحال، يثبت البعد التداولي للبلاغة العربية، حيث ربطت منذ نشأتها بين التشكيلات الكلامية والمقام وحال السامع والمتكلم.

المحور السابع: تجليات البعد التداولي في علم البيان:

علم البيان هو أحد علوم البلاغة الثلاثة وقد عرفه السكاكي بأنه : << معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة ، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه ،و بالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه >> [28] وهو من خلال جميع مباحثه يتضمن أحد أنواع الأفعال الكلامية وهو الفعل التأثيري نظرا لما تتركه الصور البيانية من تشبيه واستعارة ومجاز و كناية من أثر على المتلقي ، ، وعلم البيان يعنى بالشروط والقوانين التي تضمن مناسبة الكلام لمراد وقصد المتكلم بما يوافق حال ومقام طرفي الخطاب ، فهو علم غائي تداولي .لأنه يحتفي بمقام المتكلم ، حيث : << يقوم أساسا على الاهتمام بالموقف الداخلي المراد،فيجعل من قصد المتكلم مركز اهتمامه كونه يؤثر في استعمال واختيار الاستراتيجية المناسبة للخطاب >> [29]،

و الصور البيانية تعين المتكلم على التعبير عن المعاني الدقيقة والعميقة التي لا تستطيع أن تؤديها اللغة الاعتيادية ،لكنها قابلة للإدراك والوصول إلى ما يقصده المتكلم من خلال المبادئ التداولية التي تجعل المتلقي يفهم أكثر مما قيل له ،وذلك بحل الشفرات البيانية اعتمادا على القرائن المقالية والحالية التي تميز الحقيقة عن المجاز،فتتجلى لدى المتلقي المعاني بأساليب مختلفة جميلة مؤثرة، فيتفاعل معها ومع دلالاتها ومضامينها الإيحائية الدقيقة . ومعلوم أن علم البيان يشمل : التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز ، وسنعرض لبعض أبعاد التداولية في كل منها فيما يلي :

أولا- التشبيه والأبعاد التداولية:

التشبيه لغة :التمثيل،وهو مصدر مشتق من الفعل < شبه >، بتضعيف الباء يقال: شبهت هذا بهذا تشبيها ،أي مثلته به .

واصطلاحا : << التشبيه : هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى >>، والمقصود مشاركته له في معنى أو أكثر من معانيه وليس في كل معانيه . يقول ابن رشيق : << التشبيه :صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة ، لا من جميع جهاته ،لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه ،ألا ترى أن قولهم << خد كالورد >> إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها ،لا سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمائمه >> [30]

التشبيه يقوم على القصدية ،قصدية المتكلم وغرض كلامه فهو كما يقول السكاكي .<< لا يصار إليه إلا لغرض >> [31] . وهو استراتيجية خطابية يعتمد عليها المتكلم من أجل الوصول إلى قصده وغايته ،ومن هنا يظهر البعد التداولي للتشبيه .فعلى حد تعبير محمد سويرتي .<< كل تعبير غائي تداولي >> [32]، كما يتضمن التشبيه من خلال أغراضه

بعدا تداولي آخر ،وهو البعد الحجاجي الإستدلالي من أجل التأثير على المتلقي وإقناعه .

ثانيا- أغراض التشبيه :

وهي الغايات والمقاصد التي تجعل المتكلم يلجأ إلى التشبيه من أجل تمكينها في نفس المتلقي وإقناعه بها وحمله على التسليم بها ، حيث يختار المخاطب أسلوب التشبيه لشعوره بأنه أكثر من غيره في إصابة الغرض وبلوغ الغاية من التعبير ،ووضوح الدلالة على المعنى ،وأغراض التشبيه متنوعة ،وتعود أكثرها إلى المشبه ،وقد تعود إلى المشبه به ،وسيظهر من ذكر بعض هذه الأغراض والتمثيل لها البعد التداولي للتشبيه :

1- بيان إمكان وجود المشبه :

وذلك حين يسند إلى المشبه أمر مستغرب لا تزول غرابته إلا بذكر شبيه له . مثال قول المتنبي :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

فالتشبيه هنا ضمني ، وفيه ادعى الشاعر أن المشبه وهو ممدوحه مباين لأصله بخصال وصفات جعلته حقيقة منفردة .ولما رأى غرابة دعواه وأن هناك من قد ينكر وجودها ،احتج واستدل على صحتها بتشبيه الممدوح بالمسك الذي أصله دم الغزال ،فالوجه الحجاجي الاستدلالي للتشبيه لا يخفى في هذا المثال .

2- بيان حال المشبه:

مثل قول النابغة الذبياني :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فالنابغة يشبه ممدوحه بالشمس ، ويشبه غيره من الملوك بالكواكب ، لأن عظمة ممدوحه تخفي عظمة كل ملك كما تخفي الشمس الكواكب ، ولما كانت حال الممدوح وغيره من الملوك مجهولة غير معروفة ، فقد أتى بالمشبه به لبيان أن حال الممدوح مع غيره من الملوك كحال الشمس مع الكواكب، فإذا ظهر أخفاهم كما تخفي الشمس الكواكب بطلوعها .

3- بيان مقدار حال المشبه:

مثل قول عنترة :

فيها اثنتان وأربعون حلوبة سودا كخافية الغراب الأسحم

فعنترة يخبر في هذا البيت بأن حمولة أهل محبوبته تتألف من اثنتين وأربعين ناقة تحلب ،ثم وصف هذه النوق بأنها سود ، والنوق السود هي أنفس الإبل عند العرب . ولبيان مقدار سود هذه النوق شبهها بخافية الغراب الأسحم، أي جناحه الأسود.وتظهر من خلال هذه الأمثلة الطبيعة الاستدلالية للتشبيه وهي ميزة علم البيان في جميع مباحثه المذكورة آنفا حيث تتضمن القياس والحجاج من أجل الإقناع والتأثير في المتلقي ،والحقيقة أن التعبير المجازي عموما سواء كان تشبيها أو غيره قائم على التراتبية الحجاجية ، ولو تأملنا أنواع التشبيه وأضربه لوجدنا التشبيه فيها يزداد قوة ويتصاعد من التام إلى الضمني مرورا بالمؤكد فالبليغ فالمقلوب فالتمثيلي. ويمكن تمثيل ذلك في سلم حجاجي بالشكل التالي :

الشكل(1): سلم حجاجي

ثالثا- الاستعارة :

والاستعارة لغة رفع الشيء وتحويله من مكان إلى آخر ،يقال استعار فلان سهما من كنانته ، رفعه وحوله منها إلى يده،

واصطلاحا : من أوائل من عرف الاستعارة من البلاغيين نجد الجاحظ حيث يقول : << هي تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه >> [33]، و عند السكاكي هي: << أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر >> [34]

والمتكلم يختار التعبير الاستعاري لغرض وقصد يتوخاه سلفا أو تفرضه ظروف الخطاب ،وتعتبر القصدية أو قصد

المتكلم التأثير على السامع والحجاج من أجل إقناعه وإمتاعه بفحوى خطابه ، من أهم المظاهر التداولية الموجودة في الاستعارة . وفي حالات كثيرة يعمد المتكلم من أجل التأثير في المتلقي وإقناعه بوجهة نظره ،إلى استخدام حجج و براهين متضمنة في التعبير الاستعاري تدعم رأيه ، فتزيده قوة، وتحمل السامع على التجاوب وتحقيق غرض الخطاب . ذلك << أن المتميز واللافت في القياس الشعري أي في التشبيه والاستعارة أنه يجمع بين الإقناع والجمال ، إنه يقنع بالفكرة أو الرأي من جهة أنه قياس ، وهو يمتع ويطرب من جهة أنه صورة تزين القول وتوشيه >> [35] ،وفي هذا يقول أبوبكر العزاوي : <<...إن القول الاستعاري يتمتع بقوة حجاجية عالية إذا ما قورن بالأقوال العادية >> [36] ومن أمثلة ذلك قول ابن المعتز :

جمع الحق لنا في إمام قتل البخل وأحيى السماحا

فقد جاء الشاعر بنوع جديد من الأسلوب الاستعاري للتأثير في السامع من خلال استعماله الطباق الموضوع بين الفعلين (قتل) و (و أحيى) وهما فعلان دالان على القوة ليسا في قدرة الإنسان ، لأنهما من أفعال الخالق ، واستعيرا للممدوح من أجل إظهار قوته وقدرته في نصرة الحق وإحقاقه ، ففي هذا البيت جرى إدعاء القتل والحياة لغير ما يناسبهما في الواقع حتى يدفع بالسامع إلى الاقتناع بقدرة الممدوح ورفعته . ومن الاستعارات القرآنية البديعة المؤثرة قوله تعالى : << ومزقناهم كل ممزق >> (سورة سبأ الآية 19) ،حيث استعير لفظ التمزيق الخاص بالثوب لبيان مدى التباعد والتفرق الذي حل بقبائل سبأ ،بعد اجتماع شمل واستقرار وازدهار ،حتى صاروا مضرب المثل عند العرب ،فيقال : تفرقوا أيادي سبأ .

رابعا- الكناية :

تعد الكناية من الأساليب التي يتم فيها الوقوف على الدلالات المستلزمة للملفوظات (الألفاظ)، وعرفها الجرجاني في الدلائل في فصل (في اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره) بقوله : << أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومىء به إليه ويجعله دليلا عليه >> [37] ، فالكنايات معاني استلزامية متروكة يقتضيها ويستلزمها اللفظ المذكور ، وبذلك يعرفها السكاكي في قوله : << هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك >> [38] ومن الأمثلة الشائعة عند القدامى للكناية :

- طويل النجاد
- كثير رماد القدر
- نؤوم الضحى

ويمكن تحليل هذه الأمثلة تداوليا كما يلي :

الشكل(2): الأمثلة الشائعة عند القدامى للكناية

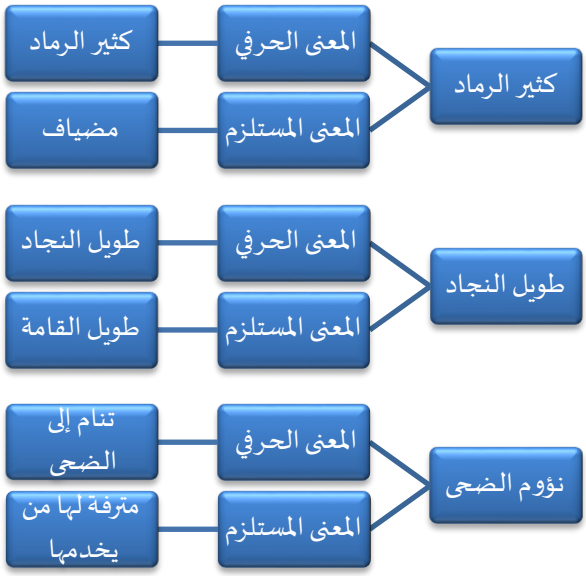

وقد قسم السكاكي الكناية إلى نوعين :

.كناية قريبة : والأمثلة السابقة نماذج لها، وهي .كما يقول أبويعقوب السكاكي ـ << أن تنتقل إلى مطلوبك من أقرب لوازمه إليه ،مثل أن تقول : "فلان طويل نجاده " أو " طويل النجاد " متصلا به إلى طول قامته >> . [39]

ـ و كناية بعيدة : وهي << أن تنتقل إلى مطلوبك من لازم بعيد بواسطة لوازم متسلسلة ، مثل أن تقول " كثير الرماد " فتنتقل من كثرة الرماد إلى كثرة الجمر ، ومن كثرة الجمر إلى كثرة إحراق الحطب ، من كثرة إحراق الحطب على كثرة الطبائخ ،ومن كثرة الطبائخ إلى كثرة الأكلة ،ومن كثرة الأكلة إلى

كثرة الضيفان ،ومن كثرة الضيفان إلى أنه مضياف ،أنظر بين الكناية وبين المطلوب بها كم ترى من لوازم >> [40]

ويمكن أن نوضح ما ذكره السكاكي في تحليل المثال السابق بالشكل التالي :

الشكل(3): تحليل المثال السابق

فالسامع هو الذي يقوم باستنتاج مستلزمات الكناية حتى يصل إلى المعنى المقصود ، أي أنه يشترك أو يتعاون مع المتكلم في الوصول إلى القصد ، وهنا يظهر البعد التداولي للكناية .

كما أن هذا التحليل للكناية يقترب مما يعرف عند " جرايس " بـ " الاستلزام الحواري conversational implicative " ، حيث ينتقل السامع من المعنى الحرفي إلى المعنى الثاني غير المباشر ، عن طريق مجموعة من الاستنتاجات والاستدلالات تشبه مفهوما آخر من المفاهيم التداولية وهو مفهوم السلم الحجاجي من أجل الوصول إلى المعنى المقصود من طرف المتكلم .

و يمكن تمثيل المثال السابق للكناية على السلم الحجاجي كما يلي :

الشكل(2): المثال السابق للكناية على السلم الحجاجي

خامسا- المجاز:

وهو "استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي " كإطلاق لفظ "الأسد" على الرجل الشجاع ، ولفظ " الشمس " على الوجه المليح ، و لفظ " البحر " على الرجل الجواد . (عبد العزيز عتيق ، علم البيان) ومن التجليات التداولية في المجاز ما يلي :

1. تجاوز المعنى الأصلي للالفاظ إلى المعنى الذي يعطى لها في السياق ، وفق قوانين الاستعمال وذلك لأن مقاصد المتخاطبين لا يمثلها الوضع اللغوي المجرد فحسب ،ولا يمكن الوصول إليها إلا من فهم اللغة في سياق الاستعمال المتجدد بتجدد تلك المقاصد . ويمثل ذلك قاسما مشتركا بين التداولية والمجاز ، فمثلا قوله تعالى : << إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا >> (النساء آية10) فالمعنى الحرفي للأكل هو تناول المال عن طريق الفم ، أما دلالته المفهومة من السياق فهي : حيازة المال والاستحواذ عليه ، وهو المقصود أصلا من الخطاب في محل النطق بطريق المجاز .

2ـ الافتراض المسبق : حيث تمثل الافتراضات المسبقة الخلفية التواصلية الضرورية لتحقيق النجاح في عملية التواصل بين متكلمي لسان ما ، وهي محتواة ضمن السياقات و البنى التركيبية و سياق الحال والعرف الاجتماعي والعهد بين المتخاطبين، وهي نقاط ترتكز عليها التداولية ويقوم عليها المجاز ، فمثلا لفظة " الصلاة " تعني في السياق اللغوي الدعاء لكنها في السياق العرفي الشرعي تعني مجموعة الحركات والأقوال التي يؤديها المسلم في أوقات محددة . فلو قائل في وقت الصلاة : فلنقم لنصلي لفهم منه أنه يريد المعنى العرفي ، لكن لو قال : صلوا على النبي صلى الله عليه وسلم لفهم منه أنه يريد الدعاء ،ففي قوله تعالى << أتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر >> (العنكبوت آية45) المقصود بها الصلاة المفروضة ، وأما قوله تعالى << خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم >> (التوبة آية 104) فقد فسره العلماء بالدعاء للمزكين أموالهم . وكذلك قوله تعالى << وسأل

القرية >> (يوسف آية 82) ، حيث نجد السؤال موجه للقرية ، ولكن الافتراض المسبق من كون القرية غير عاقلة و لا يمكن سؤالها دفع اللغويين والبلاغيين إلى القول بالمجاز فقدروا محذوف وهو " أهل القرية " .

خاتمة :

وفي نهاية هذا المقال يمكن القول إن العناصر التداولية تتجلى بكل وضوح في مباحث البلاغة العربية ، وأن علم البيان خاصة قد حفل بتلك المفاهيم ، مما يجعلنا نجزم بكل ثقة أن علماء البلاغة واللغة عموما كانوا على دراية بالأبعاد التداولية ،و قوانين الخطاب ، و أن اللسانيات العربية كانت سباقة إلى أحدث ما توصلت إليه اللسانيات الغربية والمتمثل في مباحث التداولية و لسانيات الخطاب ، كما بين ذلك كثير من الباحثين العرب مثل أحمد المتوكل في كتابه "الوظائف التداولية في اللغة العربية " وغيره ، وعبد الرحمان حاج صالح في كتابه " بحوث ودراسات في اللسانيات العربية " وغيره .

. قائمة المراجع:

1. فرانزواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ت: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986
2. محمود نحلة، الاتجاه التداولي في البحث اللغوي المعاصر في اللغة والأدب، دار الوفاء لدينا النشر: الإسكندرية،
3. مسعود وصحراوي، التداولية عند العرب ...
4. محمود فهمي زيدان في فلسفة اللغة دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر
5. أبو هلال العسكري، الصناعتين، ت مفيد قمحة، ط2 ، 1989م، دار العكت العلمية، بيروت لبنان
6. أبو يعقوب السكاكي،مفتاح العلوم،ضبطه وشرحه الأستاذ نعيم زرزور،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان، ط1 (1403ه/1983م)
7. (7)صلاح فضل ، بلاغة الخطاب، وعلم النص أدبيات الشركة المصرية العالمية، ط1996
8. محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها وأمتداداتها) افريقيا الشرق، المغرب، 1990
9. باديس لهويمل، مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي ، رسالة ماجيستر، جامعة محمد خيضر، بسكرة كلية الأداب واللغات،(2011_2012م)
10. د.خالد حميدي، البلاغة العربية والمقاربات النقدية المعاصرة، دار قرطبة، الجزائر
11. ابن فارس أحمد زكرياء الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ت.مصطفى الشويمي، دار الطباعة والنشر، بيروت لبنان
12. خليفة بوجادي في اللسانيات التداولية ، بيت الحكمة ، الجزائر ، ط 2
13. ابن خلدون ، المقدمة ، اعتناء احمد الزغبي ، دار الهدى ، الجزائر .
14. الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل .
15. ابن وهب ، البرهان في وجوه البيان ، تحقيق حسن محمد شريف ، مكتبة الشباب ، مصر.
16. الخطيب القزويني ،الايضاح في علوم البلاغة ، ت: ابراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية، لبنان ، ط 1 \2003
17. عبد العزيز عتيق ،علم البيان /دار الأفاق العربية القاهرة ط1 ،1418ه 1998 م
18. محمد سويرتي ،اللغة ودلالاتها ، تقريب تداولي للمصطلح التداولي
19. سامية الدريدي ،دراسات في الحجاج ، قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي ،عالم الكتب الحديث ،دار الكتاب العالمي ،الأردن ط 2009
20. أبو بكر العزاوي ، الخطاب الحجاجي ،الأحمدية للنشر المغرب ط1 2007
21. عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز في علم المعاني ،تصحيح محمد عبده وتعليق محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ،بيروت لبنان ط 1415 ه ،1994 م

[1]فرانزواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ت: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986ص80 .

[2]محمود نحلة، الاتجاه التداولي في البحث اللغوي المعاصر في اللغة والأدب، دار الوفاء لدينا النشر: الإسكندرية، ص188)

[3]مسعود وصحراوي، التداولية عند العرب ...ص41)

[4]نفسه ص:41 .

[5]محمود فهمي زيدان في فلسفة اللغة دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر ص54 .

[6]فرانسوازأرميتكو، المقاربة التداولية ص07

[7]محمود نحلة، الإتجاه التداولي في الدرس اللغوي المعاصر

[8]أبو هلال العسكري، الصناعتين، ت مفيد قمحة، ط2 ، 1989م، دار العكت العلمية، بيروت لبنان ص15

[9]المرجع نفسه ص: 19)

[10]أبو يعقوب السكاكي ،مفتاح العلوم ،ضبطه وشرحه الأستاذ نعيم زرزور ،دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان، ط1 (1403ه/1983م) ص (161ـ162 و423)

[11]أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص 19

[12]نفسه ص 20

[13]صلاح فضل ، بلاغة الخطاب، وعلم النص أدبيات الشركة المصرية العالمية، ط1996ص(114)

[14]محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها وأمتداداتها) افريقيا الشرق، المغرب، 1990ص214

[15]صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص ص 98

[16]نفسه ص 97

[17]مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي (ت626) باديس

[18]د.خالد حميدي، البلاغة العربية والمقاربات النقدية المعاصرة، دار قرطبة، الجزائر ص 223

[19]ابن فارس أحمد زكرياء الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ت.مصطفىالشويمي، دار الطباعة والنشر، بيروتن لبنان ص 192

[20]القاضي عبد الجبار، المغني ج 17 ص 72، نقلا عن خليفة بوجادي ص 136

[21]ابن خلدون ، المقدمة ، ص 565 .

[22]الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ،ص 138-139 .

[23]ابن وهب ، البرهان في وجوه البيان ، تحقيق حسن محمد شريف ، مكتبة الشباب ، مصر ، ص 37.

[24]ابو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر ، تحقيق محمد علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل اربراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت لبنانن ، ص 39 .

[25]الخطيب القزويني ،الايضاح في علوم البلاغة ، ت: ابراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية، لبنان ، ط 1 \2003 ص 80 .

[26]صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، ص 26 .

[27]أبو يعقوب السكاكي ،مفتاح العلوم ،ضبطه وشرحه الأستاذ نعيم زرزور ،دار الكتب العلمية ،لبنان ط1 ص 249 .

[28]مفتاح العلوم ص 247

[29]باديس لهويمل،مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي،رسالة ماجستير،جامعة بسكرة ،كلية الاداب واللغات،2012/2011 ص 32

[30]عبد العزيز عتيق ،علم البيان ،دار الأفاق العربية القاهرة ط1 ،1418ه 1998 م ص46

[31]مفتاح العلوم ص 439

[32]محمد سويرتي ،اللغة ودلالاتها ، تقريب تداولي للمصطلح التداولي ص 40

[33]البيان والتبيين ج1 ص 153

[34]مفتاح العلوم 477

[35]سامية الدريدي ،دراسات في الحجاج ، قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي ،عالم الكتب الحديث ،دار الكتاب العالمي ،الأردن ط 2009 ص 96

[36]أبو بكر العزاوي ، الخطاب الحجاجي ،الأحمدية للنشر المغرب ط1 2007 ص 46

[37]عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز في علم المعاني ،تصحيح محمد عبده وتعليق محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ،بيروت لبنان ط 1415 ه ،1994 م ص219

[38]السكاكي مفتاح العلوم ، ص 219

[39]نفسه 514

[40]نفسه 515